القسم الأول

أزمة الخطاب الإسلامي المعاصر
دوافع الأزمة وعقلية التأزيم

obeikandl.com

obeikandl.com

أزمة الخطاب الإسلامي المعاصر

ما اتفقت كلمة مثقفي الأمة في عصرنا على شيء مثل اتفاقها على أن الأمة الإسلامية في سائر شعوبها، وفي مقدمتها الشعب العربي، تعيش أزمة فكرية، تتجلى في شكل غياب ثقافي، وتخلف علمي، وكسوف حضاري، وتتجسد في عجز الخطاب الفكري المعاصر عن إيصال مضمون الخطاب الإسلامي السليم ومحتواه، قرآناً وسنة وشريعة وأخلاقاً، وإن اختلفوا في تحديد الأسباب ووسائل العلاج.

والحسّ بالتأزم، أدى بطبيعة الحال، إلى طرح عدد من مشاريع النهوض والإصلاح على العقل المسلم، فعرضت اجتهادات وآراء لمشاريع متنوعة، كما أعيد عرض المشروع الغربي بطرق مختلفة وأساليب متنوعة، تدعي أن التأزم إنما جاء بسبب سوء التطبيق، وليس من خطأ المنهج وضلال الفكر ذاته. كما اقترن ذلك بمحاولات للتقدم بمشاريع ملفقة، تأخذ من المشروع الغربي محتواه، ومن المشاريع الإسلامية جملة من ألوانها وبعض ثيابها.

وتحت وطأة المشروع الحضاري وسيادة خطابه مع تعدد أبواقه، والاشتغال بآثار المشكلات عن دراسة أسبابها الفكرية، اهتمت معظم المشاريع المعروضة للنهوض بعالم الأشياء ولم تعط عالم الأفكار القدر الذي يستحقه، مما أفقدها التخطيط المطلوب، والنظرة الموضوعية الشمولية، والقدرة على التقويم المستمر، والنظرات التجزيئية، الأمر الذي أدى إلى السقوط والإحباط، وتعقيد المشكلة أكثر فأكثر، بدلاً من تقديم الحل المناسب لها.

obeikandl.com

1 - المشروع الإسلامي

إن الخطاب الذي انبثق من المشروع الإسلامي، قد انصرف في جزء كبير منه إلى الكفاح والتعبئة له بحكم ظروف الصراع المرير بين الأمة وأعدائها الناتج عن احتلال أهم وأكثر ديار المسلمين في القرن الميلادي الماضي وأوائل هذا القرن، وتحويل بعضها إلى مناطق حماية ونفوذ، وبعضها الآخر إلى أسواق ومجالات حيوية، فأدى ذلك إلى الانشغال بحماية الأمة وتوجيه اهتماماتها وطاقاتها نحو قضيتين أساسيتين: حفظ العقيدة من ناحية، وتعبئة الأمة للمواجهة السياسية وربما الجهادية أو العسكرية في بعض المواقع أو بعض الأحيان، من ناحية أخرى، ثم إذا بقي في الطاقات فضلة وجهت باتجاه القضايا الفقهية، لإعادة تقديمها وشرحها واختصارها ومقارنتها بالقضايا القانونية للفكر الغربي.

أما معالجة الأزمة الفكرية بدراستها ومعرفة أسبابها والإفادة من التجربة الميدانية بفقه الميدان الذي وفرته المواجهة، ومن ثم إقامة البناء المعرفي والثقافي على ضوء ذلك، فلم يعطها الخطاب الإسلامي -إلى وقت قريب- ما تستحقه من العناية والاهتمام، وما تستلزمه من الدرس والتحليل.

أ- توجيه الاهتمام لحفظ العقيدة:

والملاحظ أن حظاً كبيراً من الجهود صرف في الدعوة لحفظ العقيدة الإسلامية، ربما لاعتقاد البعض أن مفاهيم الإسلام الصحيح - في عقول وقلوب أبناء الأمة - لم ينلها تغيير كبير ما دامت لم تنكر شهادة الحق بعد، وهذا صحيح إلى حد كبير، لكنه لا يقبل على إطلاقه. ذلك أن المفاهيم قد أصابها تحريف وتغيير كبيران مع عمارة القلوب بالإيمان بالله تعالى وبرسوله، فإذا استصحبنا هذا وأحسنا التعامل معه، فإنه يشكل الإمكان المعرفي الذي نسعى لبنائه بشكل منهجي صحيح؛ لتحويل العقيدة إلى قاعدة فكرية ومعرفية.

هناك وَهْم بأن حقن الأمة بشحنات من الحماسة والخطب، ومزيد من التوثب الروحي، والتذكير بالأمجاد المشرقة للواقع التاريخي كفيل بانطلاق الأمة من جديد نحو حياة إسلامية راغدة، وحضارة إسلامية جديدة، ووحدة

إسلامية شاملة، دون بناء عالم فكري ومفاهيمي ومعرفي وثقافي صحيح، يوجه حركة الأمة، ويرسي قواعد سيرها ونهجها؛ وفي هذا الكثير من المجازفة، وفقدان الرؤية الصائبة، والاكتفاء بالإحساس بالمشكلة عن التفكر في إدراك الحل لها، ويشهد على ذلك الواقع المتردي الذي تعيشه وتعاني منه الأمة.

إن هذا الوهم هو الذي دفع البعض إلى أن ينظر إلى الأزمة الفكرية على أنها مظهر من مظاهر الخلل في العقيدة، وأن العمل على إصلاح العقيدة سوف يؤدي حتماً إلى إصلاح ما يسمى بالأزمة الفكرية.

أما نحن فلا نرى أن أحداً يستطيع أن ينكر أن دراسة الواقع التاريخي الإسلامي، وتذكير الأمة بأمجادها، واستعادة أبعاد شخصيتها الحضارية وتطورها عبر العصور، هو ضرورة حضارية وثقافية للبناء المعرفي المأمول، لكن المشكلة في عدم الوفاء بمتطلبات الشحن والتفريغ الفكري والمفاهيمي، وعدم القدرة على التحليل، والعجز عن اكتشاف الشروط وتقدير الظروف الملائمة للفعل التاريخي، ومن ثم إدراك السنن التي تحكم السقوط والنهوض، بدل الاكتفاء بالافتخار بإنجاز الماضي والاحتماء به من عجز الحاضر. فبدون القدرة على تحويل الفكر إلى قدرة وفاعلية تسري في عروق الأمة، يصبح التاريخ والتراث معوقين حضارياً وثقافياً، عوض أن يكونا عامل نهوض وبناء.

ولذلك، فنحن لا نقصد من تحليلنا هذا التقليل من أهمية سلامة العقيدة، التي تشكل المحور الأساسي في البناء المعرفي والثقافي الإسلامي، بل نحن واعون تمام الوعي على أن إدراك أبعاد العقيدة وفهمها من طرف جيل القدوة، دفع إلى اجتهاد وفكر أنزل العقيدة على حياة الناس وقوم سلوكهم بها، فأنتج بناءً معرفياً وثقافياً سليماً، رست على قوائمه حضارة لم يشهد التاريخ العالمي لها مثيلاً.

أما عندما تجمدت بحوث العقيدة ضمن قوالب ومساحات ومقولات جامدة، بخاصة عند متأخري الكلاميين، وحوصرت مفاهيمها بحدودهم المنطقية وأساليبهم الجدالية داخل الصف الإسلامي، غاب عنها الفكر الذي

هو ثمرة لتحويل العقيدة إلى عمل، وتنزيلها على واقع يعيد صياغتها مع المحافظة على الأصول، ويمدها بروح التجديد ومواكبة العصر ويجعل منها إطار رؤية كلية، ومنهجاً ونموذجاً معرفياً كلياً.

لقد بذلت جل محاولات إصلاح العقيدة في إطار الجدل الكلامي، والفهم النظري المجرد، إذ لم يكن لتنزيلها على الواقع وتقويم سلوك الناس بها، أو ترجمتها إلى مسالك ومناهج ونظم، فيما وراء العبادات، مساحات فكرية تذكر، فانقلبت بحوثها إلى تجريدات ذهنية بعيدة عن الفائدة العملية كشجرة لا ثمرة لها.

ب- تعبئة الأمة للمواجهة السياسية:

لقد كان لصدمة الإحساس بالضعف أمام الجيوش الاستعمارية الغازية وحضارته الوافدة وقع على أغلب فصائل الأمة شطرها إلى فريقين:

- فريق المبهورين بالثقافة الغازية، الداعين إلى الإصلاحات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتربوية حسب الأنماط الغربية، الناعتين للإسلام بالعجز عن مواكبة الحداثة والمعاصرة، يستوي في الانتماء له القائلون بالتخلي التام عن الإسلام وتراثه، والمنادون بالتعايش مع الدين مع صياغة البناء أو المجتمع المدني بعيداً عن شريعته.

- وفريق يرى سبب التخلف في البعد عن الإسلام وقيمه، وهذا الفريق منقسم ما بين حاصر لمرض الأمة في تشويه العقيدة، وضعف الإيمان والانشغال بالترف، وفريق آخر يراه في توقف حركة الجهاد والاجتهاد العقلي منذ القرن الرابع الهجري.

فكان الفريق الأول يرى البدء بالإصلاح التربوي والاجتماعي والسياسي حتى ولو أدى ذلك إلى العنف السياسي وهدم البنى التحتية للأمة، ويرى الثاني ضرورة البدء بمقاومة الفكر الأجنبي، وإحياء الثقافة الإسلامية، وتنقية العقيدة من الشوائب، والرجوع إلى الكتاب والسنة، ثم استيعاب الحضارة الحديثة بعد تنقيتها من الشوائب وتكييفها مع أحكام الإسلام وقيمه. واستمر

طوال أزيد من قرن صراع مرير وتناقض شديد بين الفريقين، فما يعتبره أحد الفريقين مصدراً للتقدم والرقيّ، يراه الآخر مصدراً للعمالة والتبعية والانحطاط، وما يراه فريق حلاً يراه الآخر مشكلة وأزمة.

لكن الفريقين أجمعا على أن وسائل التغيير وأدواته لا تتجاوز ثلاثة هي:

- الإصلاح بطريق الدعوة والعمل السياسي بعد بناء قاعدة تربوية.

- الإصلاح باستقطاب مراكز القوى لانتزاع السلطة وإحداث التغيير من خلالها ولو بالقوة.

- الإصلاح بتغيير مفاهيم الأمة وتحريضها على رفض الواقع، وتنويرها لبلوغ الهدف، عن طريق الخطاب السياسي والتكتل الحزبي.

من هنا كان اهتمام مشروع الإصلاح الإسلامي خطاباً وبرنامجاً، معنياً بالمدخل السياسي، والتركيز على حشد الجهود لتعبئة الجماهير الإسلامية للمواجهات السياسية، إما لكسب سبق في التعبئة السياسية الشعبية، أو رد فعل لما يصدر عن الخصوم من ازدراء وتشويه للإسلام وشريعته، مما نتج عنه إرجاع الأزمة إلى وجود أفراد غير ملتزمين على هرم السلطة، أو حصر أسبابها في بقاء جماعات ومؤسسات رسمية أو غير رسمية في مجالات التأثير، أو غير ذلك من المظاهر التي استفحلت، حتى ذهب البعض إلى أن سبب الداء الحقيقي جهات خارجية، وحصر آخرون علة العلل في بقاء السلطان، الذي لا يطبق الأحكام، وذهب فريق إلى أن أصل المرض وجود الولايات المتحدة أو قوى عظمى معادية أو غير ذلك من التفاسير السريعة، والتحاليل المرتجلة، التي تجعل من النتائج أسباباً، ومن المسكنات علاجاً، ناسين أو متناسين أن أصل الداء علل كامنة في فكر الأمة، وأن مكمن هذا الوباء في النفس، والعقل المسلم وفي فكره المتقاعس عن ممارسة التغيير طبقاً للسنة الربانية الثابتة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ [الرعد: 11].

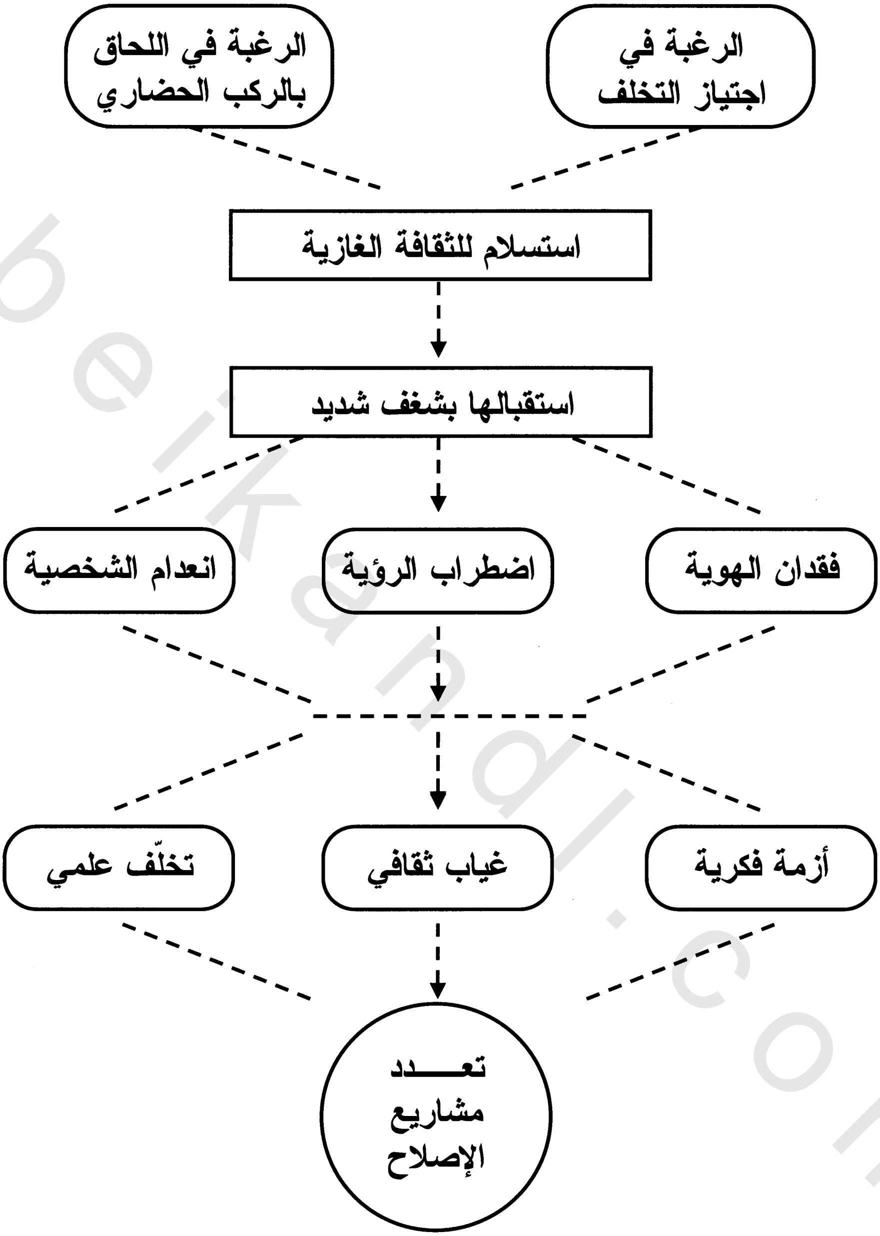

شكل (1-1)

obeikandl.com

ج- من عوائق الإصلاح:

واستيعاباً لما تقدم، فإن الخطاب الإسلامي المعاصر قد يحتاج للخروج من الأزمة إلى أن يعمل على توضيح أمور عدة قد تشكل عائقاً في وجه إصلاح مناهج الفكر، وتقف عارضاً في طريق إسلامية المعرفة، نوجز أهمها فيما يلي:

- الخلط بين العقيدة والفكر

لن نضيف جديداً إذا ذكرنا أن سبب الخلط الحاصل في أذهان البعض بين العقيدة والفكر هو عدم التمييز بين مصدريهما. فمعلوم أن العقيدة وحي إلهيّ محدد الأركان، ثابت الحدود والمعالم، والفكر اجتهاد بشري محض، يحتمل الخطأ والصواب، له حقيقته ومنطلقاته وأدواته ووسائله وبدهي أن الفكر البشري هو الثمرة لتعامل العقل مع الوحي وتنزيله على الواقع، وتقويم الواقع به بصياغة ملائمة، وحلول مناسبة، وأبنية عقلية ومعرفية سليمة.

وكثيراً ما يكون مثل هذا الخلط ناتجاً عن قصور المنهج عن تحليل الوضع المراد إصلاحه، ولهذا ركزنا فيما تقدم على أن من أولويات تجديد الخطاب الإسلامي: إصلاح مناهج الفكر، لأن الفكر لا يعمل عمله المرجو منه، ولا يؤدي دوره الكامل إلا إذا رافقه منهج سليم وواضح يسير عليه ويقتفي أثره.

- الاعتقاد بأن المعرفة لا دين لها

يضاف إلى أصحاب الخلط بين العقيدة والفكر، أولئك الذين يتوهمون أن المعرفة لا دين لها، ويرون أنها تتدين بدين حاملها ولو لم ينتجها، فتتبعه في دينه ومذهبه بقطع النظر عن فلسفتها ومنطلقاتها وأهدافها وغاياتها. وذلك لقصور في إدراك بنية المعرفة ومقوماتها وشروط إنتاجها وصناعتها، مما جعل هؤلاء يتصورون أن الإنسان إذا كان مسلم العقيدة، مستقيم الوجه، فإن أية ثقافة أو معرفة يكتسبها، سوف تنقلب لديه بشكل طبيعي أو آلي إلى معرفة إسلامية وثقافة إسلامية، ذلك أنها بدخولها معه المسجد للصلاة، ومصاحبتها له حين الحج أو العمرة ستسلم، سواءً خرجت تلك المعرفة من رأس داروين، أو فرويد أو ماركس أو ديورانت، أو جون ديوي، أو دوركايم، أو

obeikandl.com

انبثقت عن ذهن الغزالي، أو ابن تيمية، أو ابن رشد، أو ابن خلدون أو سواهم.

ولهذا كثيراً ما تتردد على ألسنتهم تلك المقولة الخاطئة المدعية أن الثقافة والفكر لا دين لهما ولا وطن، ولا سبيل للحواجز الجغرافية للوقوف في وجههما، وكثيراً ما تردد ذلك الفئات الراغبة في جعل أذهان العالمين تذعن للفكر الغربي السائد، وما انبثق عنه من ثقافة وحضارة بالسيادة والعالمية. ويلوكون خطاباً لمقولتهم على أنغام توهم المخاطب بأن الفكر والثقافة كالأثير، يبلغ كل منهما محيط سمع المخاطب ويلج ذهنه شاء أم أبى، وترغب في أن تقنعه بأن لا طريق إلى النهضة والتقدم ودخول العصر دون الأخذ بهما (أعني بالفكر والثقافة الغربيين) واتباع نهجهما، فذلك قدر الدنيا وقضاؤها.

وهذا غاية الخلط والتداخل، فالمعرفة ثمرة لفلسفة وعقيدة ورؤية كلية ونظرية تنتجها ولا تنفك عنها، وهي في النهاية المولد الثقافي للأمة. ولكل عقيدة تصورها للكون والحياة والإنسان، ولكل معرفة منطلقاتها وأهدافها. واستعارة معرفة من ثقافة أخرى، كتعليق الثمار على غير أشجارها، فلا يمكن للأشجار أن تروي الثمار، ولا للثمار أن تتنفس من خلال الأشجار.

- **حصر العلاج في إضافة حصص المواد الإسلامية**

ويرى آخرون أن البناء المعرفي والثقافي، إنما يتحقق بزيادة حصص تلاوة القرآن وتدريس الفقه، وحفظ بعض الأناشيد الإسلامية في المراحل الابتدائية والإعدادية بأساليبها وطرائقها القديمة، دون القدرة على ترجمتها إلى أوعية فكرية تسع حياة الأمة وحركتها.

وليس واقع مادة الثقافة أو الحضارة الإسلامية في الجامعات اليوم، والمضمون الذي تتعرض له، والصورة التي هي عليها في المقررات، إلا عناوين جديدة لمضمونات قديمة وأساليب تقليدية لم تحدد أهدافها ومنطلقاتها ووسائلها في عملية التعليم، ووظيفتها في بناء الأمة بشكل صحيح وسليم، وفقاً لنموذج حددت مواصفاته انطلاقاً من «الرؤية الكلية للأمة».

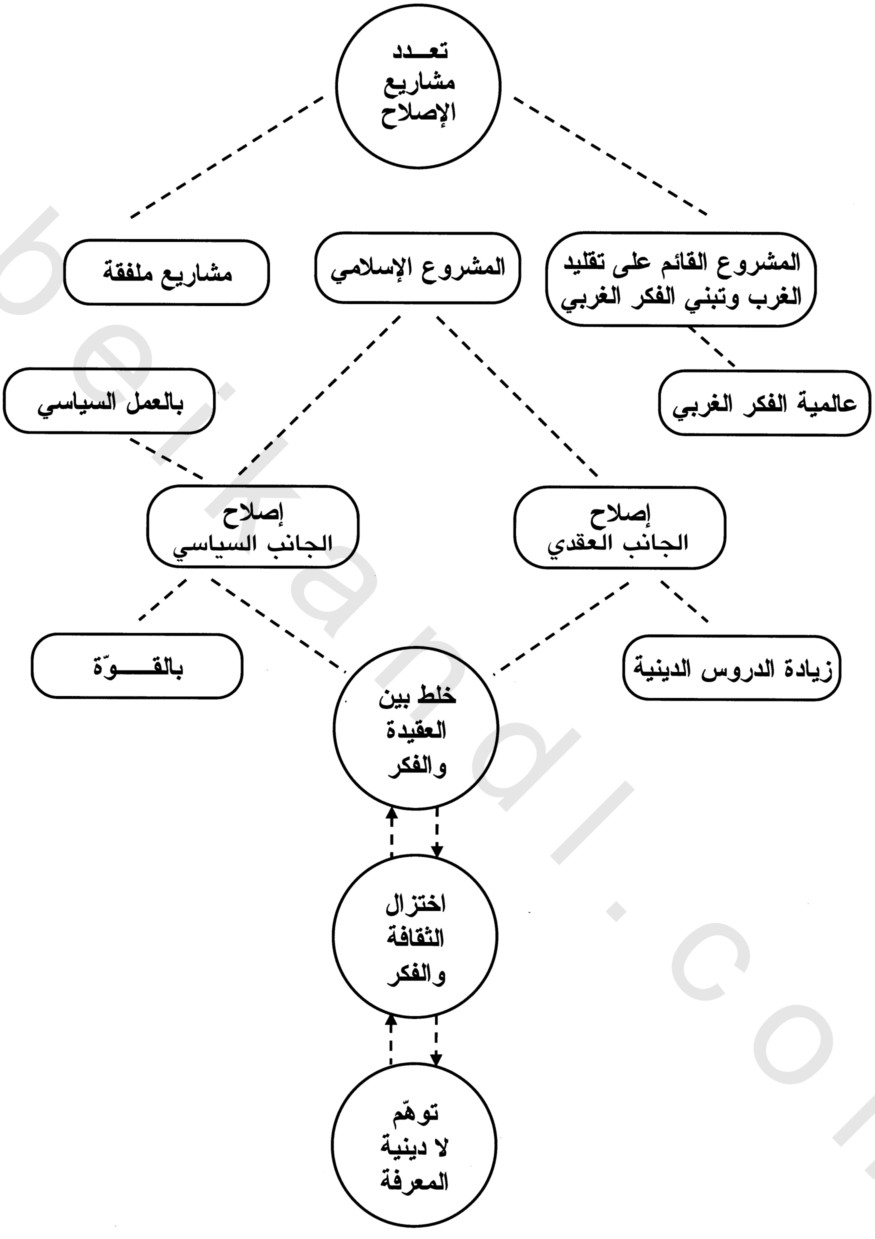
تعـــدد
مشاريع
الإصلاح
مشاريع ملفقة
المشروع الإسلامي
المشروع القائم على تقليد الغرب وتبني الفكر الغربي
بالعمل السياسي
عالمية الفكر الغربي
إصلاح الجانب السياسي
إصلاح الجانب العقدي
بالقـــوّة
زيادة الدروس الدينية
خلط بين العقيدة والفكر
اختزال الثقافة والفكر
توهّم لا دينية المعرفة

شكل (1-2)

والذي توصلنا إليه بعد طول عناء وبحث، أن الأزمة الفكرية والثقافية لا تعالج بزيادة حصص العلوم الشرعية، أو رفع الشعارات الإسلامية في المدرسة، أو إضافة العناوين الإسلامية لمواد ثقافية وحضارية متنوعة في المعاهد والجامعات، بل لا بد من معالجة شاملة تتناول العملية التربوية للأمة بسائر عناصرها، لتعيد بناءها بناءً إسلامياً سليماً، يتخذ من القرآن المجيد والسنة النبوية المطهرة وسيرة الرسول العطرة والكون مصدراً موحداً للمعرفة والثقافة والحضارة.

أما الاقتصار على حفظ بعض نصوص العلوم الشرعية، أو ترتيل بعض السور القرآنية، والسعي للمهارة في أحكام التجويد ومخارج الحروف، دون تزويد الأبناء بالقدرة على التدبر والاعتبار والامتداد بالرؤية القرآنية لصناعة الحياة، فذلك يعكس عقلية الاهتمام بالوسيلة والاستغراق فيها، مع نسيان أو تناسي الهدف والمقصد.

فلا شك في أن هناك جامعات وكليات ومعاهد شرعية كثيرة، تختص بتدريس العلوم الشرعية، وتُخرج أئمة مساجد وخطباء جمعة، وقضاة أحوال شخصية، ومدرسي مواد إسلامية، وذلك أمر جيد ومفيد يسد جوانب مهمة من حاجات الأمة، ولكنه لا يغني عن جهود متخصصين في العمل على إصلاح مناهج الفكر وإسلامية المعرفة، لأن قضية «إسلامية المعرفة» هي قضية الكد والجد في البحث عن ثقافتنا الغائبة، وتجشم عناء الطريق الشاق في إعادة بنائها ثم توصيلها للأمة والعالم.

- **الاعتقاد بعالمية الثقافة الغربية المعاصرة**

إن المسلمين اليوم يعبون الثقافة والمعرفة عباً من المصادر الغربية الضاربة الجذور في الوثنية الإغريقية واليونانية والصليبية، سواءً في مجال التربية أو النفس أو الاجتماع أو الإنسان أو السياسة، أو الاقتصاد أو الفلسفة أو الإدارة أو الإعلام أو التاريخ، أو القانون أو الفنون أو الآداب أو غيرها من العلوم الإنسانية، التي تشكل القسمات الثقافية للأمة، والملامح الحضارية لشخصيتها التي تصنع ثقافتها وتصنع بها.

لقد خدع الإنسان المسلم كما خدع سواه، واقتنع اقتناعاً ظاهراً أو خفياً بمقولة روّجها الغرب نفسه وتابعوه، مفادها أن الثقافة الغربية ثقافة عالمية، وأن العلوم الغربية علوم عالمية. وهذا الاعتقاد بعالمية ثقافة الغرب وعلومه، هو من أخطر نتائج الاستلاب الثقافي، إذ نجح الغرب نجاحاً كبيراً في جعله إيماناً راسخاً وقناعة تامة في عقول وقلوب ملايين المتعلمين في سائر أنحاء الأرض لأسباب كثيرة، ونجاحه هذا يدل دلالة جازمة على أن الاستلاب الثقافي مصدر أساسي من مصادر الأزمة الفكرية وكيف لا تكون أزمة لأمم غيبت ثقافاتها، وهمشت بكل الوسائل لتعاني أسباب التجاوز والاندثار، وتقاسي تجشم الأعداء وتنكر الأبناء؟!

وقد يكون المشكل الذي استحوذ من حياتنا على قسط كبير، هو الاقتصار على الحلول المتوارثة السائدة التي أنتجت في عصر معين لمعالجة مشكلاته، وفقدان القدرة على الكشف عن الحل والمعالجة لقضايانا ومشكلاتنا من خلال جهودنا ومعاناتنا واجتهادات عقولنا. كما أن المشروع الإسلامي المعاصر لم يُفرّغ للمشكلة المعرفية من الطاقات ما يكفي، ولم يهتم بها بشكل أساسي، وإنما شغل عنها بمواجهات ومواقف دفاعية رأى أنها الأولى بجهوده واهتمامه.

وبإمكاننا أن نلخص الأسباب التي أدت إلى شيوع الإيمان بعالمية الثقافة والعلوم الإنسانية الغربية فيما يلي:

- التغلب والغلبة وأثرها في نفسية المغلوب.

- الترويج الإعلامي الواسع والمتنوع، في مواده ووسائله.

- التوسع المفرط في ابتعاث أبناء المسلمين إلى الغرب، لدراسة العلوم الاجتماعية في المدارس والمعاهد والكليات الغربية.

- إنشاء الجامعات الغربية والكنسية في عواصم البلاد الإسلامية، وإيكال مهمة تربية أبناء الذوات إليها.

- تقليد الغرب في نظمه التعليمية، واتباعه في محتوى العملية التربوية،

obeikandl.com

واستيراد العلوم الاجتماعية منه، والسير وراءه في ذلك كله.

- توقف الإنسان المسلم عن الإبداع والابتكار والاجتهاد.

هذه الأسباب وغيرها جعلت الكثير من المسلمين يركنون إلى التلقي والتقليد، سواءً في ذلك من احتمى بالتراث دون التمكن من حسن قراءته والإفادة منه، أو من تعلق بالبديل الأسهل المتمثل في الإيمان بمشروع الغالب دون مناقشة. فكلاهما عجز عن استيعاب ما صوّب وجهته نحوه ومناقشته، والعجز دائماً يفضي إلى تبني الأمور الجاهزة.

ولا شك أن أصحاب كلا المشروعين، سواءً في ذلك مشروع التقليد التراثي، أو مشروع التقليد الغربي، متعصبون للتقليد. وقد يكون عذر أصحاب المشروع التراثي أنهم يحاكون التاريخ الثقافي على سبيل التقليد، ويعجزون عن الإبداع والإفادة منه للحاضر والمستقبل. أما دعاة المشروع الغربي فهم أكثر عجزاً وتقليداً لأنهم يميلون إلى استهلاك المستورد الجاهز، الذي لا يد لهم ولا لأسلافهم في صنعه، مكرسين بذلك التخلف، ومتجاوزين للحس والقلق الحضاري الحاض على التفكير المضاعف والمعاناة، قصد الخروج من الأزمة.

2- طغيان المشروع التغريبي:

لقد ساد خطاب المشروع التغريبي أو الدنيوي أو اللاديني أو العلماني معظم ديار المسلمين، بقطع النظر عن المسميات والمبررات والشعارات المتنوعة التي أدخلت ديار المسلمين تحت فلكها وشعاراتها. ولا نحتاج إلى وصف جنود هذا المشروع وأتباعه، فهو مشروع سائر الفئات التي لم تتبنّ المشروع الإسلامي، والمؤمنة بعالمية الفكر والثقافة الغربية.

ولقد كانت حصيلة اتخاذ المشروع الغربي منهاجاً للحياة في بلاد المسلمين، وأساساً لبناء الحضارة في المجتمع الإسلامي، وخطاباً سائداً في الثقافة والفكر، الفشل والقصور عن تحقيق النتائج التي حققها المشروع نفسه في الغرب، أو تحقيق حتى الحد الأدنى منها، لأسباب نذكر منها:

- كونه من نتاج ثقافات مخالفة لثقافة المجتمع الإسلامي لا تعتد بالغيب ولا تؤمن بالوحي مصدراً للمعرفة.

- تجاهله لمعادلة الأمة الثقافية والاجتماعية.

- تناقضه مع خصوصيات المجتمع الإسلامي، ومقوّمات بنائه وكينونته.

- تصادمه مع هوية المجتمع الإسلامي، وشخصيته ومكونات عقليته ونفسيته.

- ماديته وعداؤه لروحانية الأمة، ومعادلتها النفسية.

- تنافيه مع كينونة الأمة التاريخية واختزاله لثقافتنا وتراثها، وتوهم أنها مجرد إعادة إنتاج لثقافة الإغريق والرومان.

- تكريسه للهيمنة الثقافية الغربية وسيادة الفكر الغربي وما فيه من نزعة مركزية.

- ترسيخه للكبرياء الحضارية والأنانية الغربية التي أنكرت وتجاوزت فضل الفكر والحضارة الإسلامية على الحضارة المعاصرة.

- دفعه المجتمع الآخر للتبعية والقبول بالخضوع لسلطة الغرب الفكرية المركزية وتجاوز خصوصياته.

- حيلولته دون تحقيق أي سبب أو تقدم لمن يتجاوزه، وحصر أسباب ومواصفات ذلك فيه.

- خصوصياته واعتماده على قواعد الصراع والثنائيات، وتكريسه لروح الصراع بين الأمم فمن حرب باردة إلى غزو فكري إلى صراع حضارات إلى نهاية التاريخ وتوقفه عند الحد الذي بلغه أو وصل إليه.

والواقع والتجربة العملية يشهدان على فشل البناء الثقافي الغربي في أن يقدم شيئاً لأمم العالم الثالث بعامة، وبلدان العالم الإسلامي بخاصة. ونشير هنا إلى أن استقراء التاريخ وقراءة الواقع يؤكدان أن أية محاولة للنهوض والتجديد من الخارج الإسلامي بالنسبة لأمتنا مصيرها الإخفاق والفشل.

لكن على الرغم من التأكد من الفشل، لم يعلن أنصار المشروع الغربي -بعد- انهزامهم أو موافقتهم وقبولهم بعدم صلاحية مشروعهم لإصلاح أوضاع المجتمع الإسلامي، بل زعموا أن هذا الفشل لا يمكن أن يعزى إلى المشروع ذاته، ولكنه يعزى إلى المجتمع الإسلامي نفسه لسببين: سبقت إشارتنا إليهما ونعيد تلخيصهما وتوضيحهما، وإلقاء مزيد من الضوء عليها في هذا السياق، وهما:

أ- العقلية المسلمة:

فحسب رأي أنصار المشروع التغريبي، هذه العقلية بتكوينها المعرفي والثقافي هي المسؤول الأول عن الفشل، فهي لغيبيتها لم تفهم خطابه ولم تعِ مضمونه، فرفضته ولم تحسن استقباله، وهي التي لم تتقن نقله عن أهله، لاهتمامها بالبيان، لا بالبرهان، ولم تتفاعل معه كما تفاعل معه المجتمع الغربي والإنسان الغربي. ويصرون في الوقت نفسه على أنه مشروع ناجح في ذاته لا مرية في ذلك، ونجاحه في أي زمان ومكان حتمية علمية، لأنه مشروع علمي وعالمي، يدل على ذلك نجاحه كلياً أو جزئياً في اليابان وكوريا والهند وسواها من بلدان العالم.

ولذلك فإن جريمة فشله أو إفشاله -في رأي هؤلاء- في العالم الإسلامي ترجع أساساً للتكوين العقلي للإنسان المسلم، وبنيته الفكرية، وتركيبه النفسي العرفاني، وتراثه الثقافي والروحي الغيبي. ولذلك يوصي واضعو الصيغ الجديدة لهذا المشروع بأن يبسط «العقل المسلم» على طاولة التشريح، ويبدأ في عملية جراحية كبرى متأخرة، كان يجب أن تجري قبل مائة عام؛ زمن انطلاق حملات الغزو الفكري المكثفة، الهدف منها استئصال المناعة التي تقف في وجه ولوج خطاب المشروع الغربي إليه، والمحبطة لفاعليته وتأثيره، من ثقافة ومعرفة ومصادر ونظم وتراث وتاريخ ولغة، لعل هذه الجراحة تنجح في تمكين المشروع التغريبي هذه المرة من الوصول بسرعة لأهدافه وغاياته.

وهم حين يدلون بوصيتهم تلك، فإنهم يظنون أن أساتذتهم من واضعي المشروع في صيغته، فشلوا فيما يحاولون هم النجاح فيه، ويرون أن أولئك الأساتذة لم يحسنوا قراءة التراث الإسلامي، وأن آلياتهم ووسائلهم لم تكن

من التقدم بحيث تمكنهم من التحليل التكويني للعقل الإسلامي ولا من التحليل البنيوي له. لهذا عكف كثير منهم على تقديم مشاريع لإعادة الصياغة للبنية العقلية والنفسية والمكونات الفكرية والمعرفية والعقيدية للعقل المسلم، وامتلأت الأسواق بكتابات عن التراث والمعاصرة، وتكوين العقل العربي وبنيته، ونقد العقل الإسلامي، وإعادة قراءة التاريخ الإسلامي من منظور مادي، وغير ذلك من الكتابات والبحوث التي تصب -عن قصد أو غير قصد- في جعل الفكر الغربي -وحده- وكما هو مرجعاً وقدوة.

ب- غياب الاهتمام بالمصطلح:

أما السبب الثاني -في نظرهم- فهو عدم قدرة أو التفات الخطاب الغربي إلى أهمية توظيف المصطلحات الإسلامية والتراثية التوظيف المناسب، لنقل المفاهيم الغربية إلى جمهور المسلمين. فإذا قدمت الاشتراكية مثلاً للإنسان المسلم على أنها نظريات ماركس وإنجلز وأمثالهما، تردد الضمير المسلم بحكم تكوينه العرفاني في قبولها، ولو قدمت له النظرية نفسها بكل توابعها وبسائر ما فيها على أنها فكر أبي ذر الغفاري وعلي بن أبي طالب، إضافة إلى إمكانية إدراجها تحت فقه الإمام فلان أو العلامة فلان، فسوف يسارع إلى قبولها ولا شك. ويوم تقدم له فكرة الانضمام إلى الحركة اليسارية العالمية مثلاً على أنها نضال وجهاد، وأن هناك حركة شيوعية تاريخية إسلامية تتمثل في حركة القرامطة التي حملت الأفكار ذاتها والشعارات نفسها، فسيجد هذا الصنف من الخطاب المزيف لدى جمهور المخاطبين نوعاً من القبول. وحين يقدم الفكر الغربي بكل جذوره الإغريقية والصليبية ومدارسه الداروينية والفرويدية والماركسية والسارترية والعلمانية والليبرالية على أنه فكر الغزالي، أو ابن رشد، أو ابن سينا، أو ابن خلدون، فلن يتردد الضمير المسلم في الاستجابة لذلك؛ لأنه عقل شخصاني يشخص الأفكار، ويهتم بقائليها أكثر من اهتمامه بحقائقها.

ولذا نجد فريقاً من هؤلاء قد انصرف إلى الدراسات المتعمقة والمتخصصة في التاريخ، وإسقاط أسمائها وإبرازها بأطروحات فكرية لا يجاوز عمر بعضها

Opelikan.com

قرناً واحداً من الزمان، فهناك يسار إسلامي، ويمين إسلامي، وهناك ليبراليون من الصحابة، وديمقراطيون من التابعين، واشتراكيون من أتباعهم، وهلم جراً.

وأحياناً يعمدون إلى إسقاط مفاهيم تراثية على بعض أطروحاتهم وأفكارهم للاستفادة من المشروعية التي يحملها المصطلح، فيصاغ الخطاب على نسيج الآراء الأكثر ضعفاً وهزالاً، عارضاً ألواناً من المغالطة الفكرية والمراوغات الكلامية والمصطلحية على أنها «اجتهاد» ومقدماً أشكالاً من الانحراف على أنها «تجديد»، وأنواعاً من التبذل على أنها «فن». ولهذا، كانت قضية المفاهيم والتلاعب بها في الفكر المعاصر قضية ذات خصوصية تستحق البحث وحدها.

3- جوهر الأزمة فكري:

من خلال إنعام النظر في ضعف المشروع الإسلامي، وطغيان المشروع التغريبي، تظهر الضرورة الإسلامية الملحة إلى قضية إصلاح مناهج الفكر وإسلامية المعرفة، وتبدو المسؤولية الضخمة الناتجة عن تنفيذ برامج مشروعها المتميز بالوسطية بين استلهام الأصالة وهضم الحداثة.

ولقد سبق أن شرحنا وبينا في غير هذا الموضع أن الأزمة التي نعانيها أزمة فكرية بالأساس[1]، تندرج تحتها سائر الأزمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها. وأصل الأزمة اضطراب في فهم مصادر الفكر، واختلال في طرائقه ومناهجه، واستعداد للتخلي عن تبوء المكانة اللائقة بالأمة، والموصوفة في قوله سبحانه: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: 110]، وقابلية لتلقي تعاليم الفكر الغازي والانقياد لضغوطه.

---

(1) راجع لمزيد من التوسع كتابنا **خواطر في الأزمة الفكرية والمأزق الحضاري للأمة الإسلامية**، رسائل إسلامية المعرفة (1)، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الأولى، 1989، وكتابنا **الأزمة الفكرية المعاصرة: تشخيص ومقترحات علاج**، سلسلة المحاضرات (رقم 1)، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الأولى، 1989، وكتاب الأخ د. عبد الحميد أبو سليمان **أزمة العقل المسلم** في مواضع متعددة، وكتاب الأخ الأستاذ أبو القاسم حاج حمد **الأزمة الفكرية في الواقع العربي الراهن**.

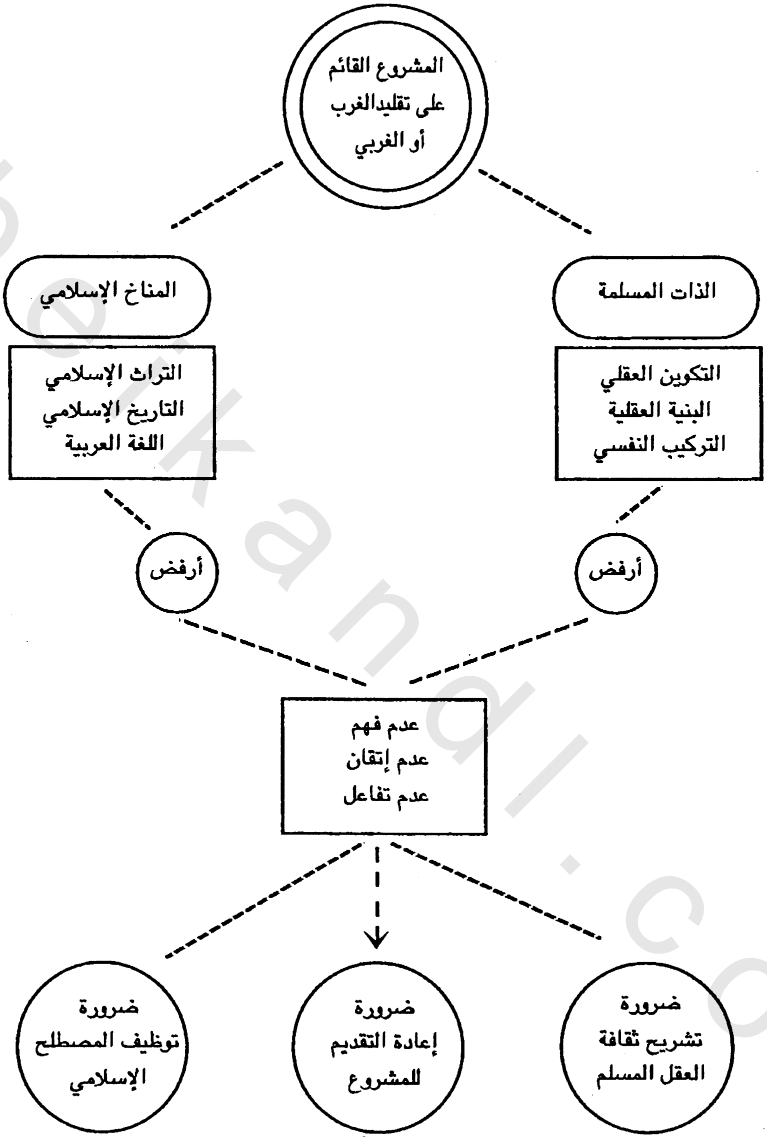

شكل (1-3)

obeikandi.com

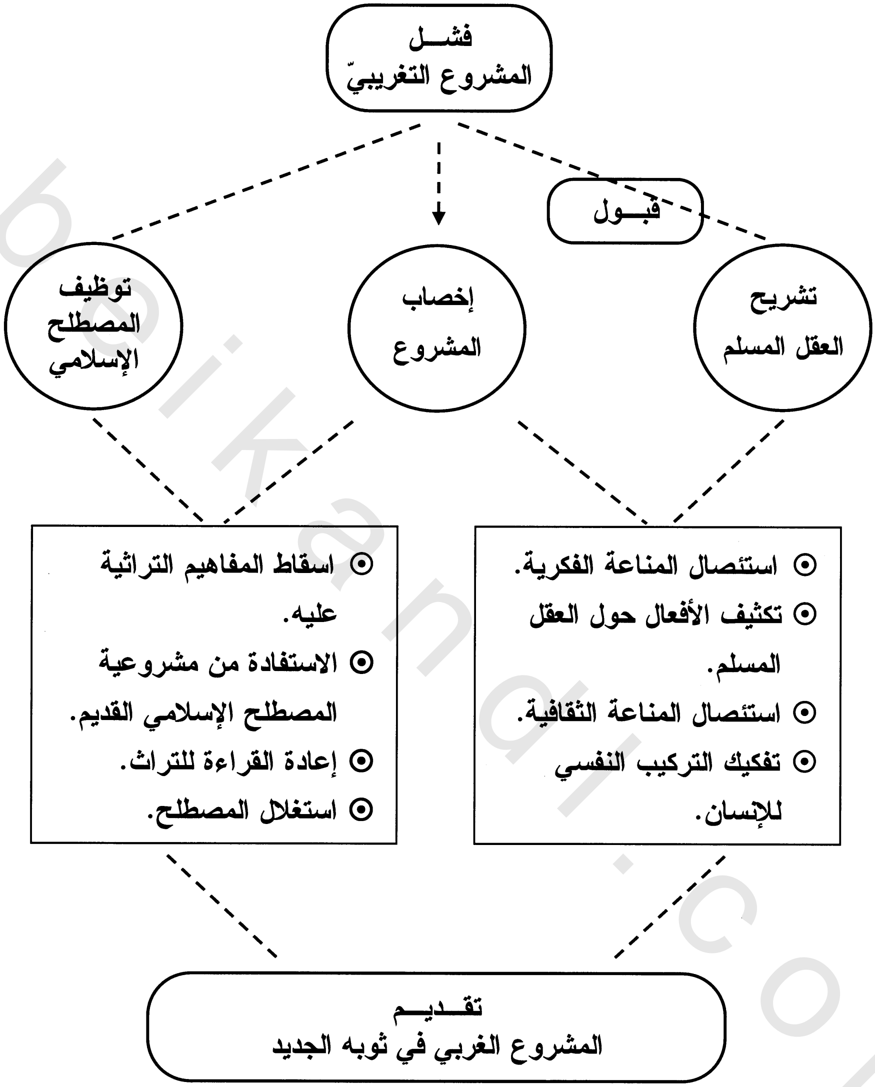

شكل (1-4)

obeikandl.com

والذي ينعم النظر في أمراض الأمة المختلفة من غياب الرؤية الواضحة، وانعدام الأصالة الثقافية والتوازن النفسي، واضطراب المفاهيم، وازدواجية التعليم، واختلاط الأهداف، وانهيار الأنظمة والمؤسسات، يدرك أن أسباب هذه الأمراض اضطراب البناء الفكري للأمة، وجمود الحركة المعرفية داخل هذا البناء، والعجز عن التجديد.

ونشير إلى تشخيصنا لأزمة أمتنا في أنها أزمة فكرية لا ينفي غيرها من الأزمات، بل نعتبر سائر الأزمات الأخرى نتيجة لها أو مظهراً أو انعكاساً لها في جانب محدد. فالأزمة الفكرية في نظرنا هي الأزمة الأم والعلة الكبرى.

وقد يكون لنا أن ندعي أن على معالجة هذه القضية، يتوقف مصير نهضة أمتنا وتقدمها، ونتيجة صراعها مع التخلف، وانطلاق دورتها الحضارية الجديدة، دورة لا تقف عند حدّ إنقاذ الأمة الإسلامية لنفسها وإعادة بنائها واستئناف حياتها الإسلامية، بل تتجاوز ذلك إلى إنقاذ الإنسانية المعذبة، واتخاذ الأمة الإسلامية موقع الشهود الحضاري الذي هو جوهر رسالتها.

ومما لا يمكن تصوره فضلاً عن ادعائه، أن تبدأ الأزمة في وقت مبكر من تاريخ أمتنا، بعد الخلافة الراشدة أو في أواخرها، ثم لا تكشف، أو تكتشف ولا يتحرك أحد لمعالجتها حتى نأتي نحن، فذلك ما لم نتصوره، ولم يخطر لنا ببال، فضلاً عن أن ندعيه، أو تجري لنا به الأقلام. ولذلك فإننا نستطيع أن نؤكد أننا حلقة من سلسلة طويلة من حلقات الإصلاح الفكري والثقافي، الذي شهدته هذه الأمة منذ بدأت الأزمة الفكرية الثقافية تطل بأشكالها البغيضة على الأمة.